مجلة الدراسات الأثرية ISSN: 1111-7699
المجلد: 22 / العدد:2024/01 /ص ص 113 - 125 EISSN2600-6499

تاريخ ومستقبل الأبحاث الأثرية بموقع قلعة بني حماد

History and future of archaeological research at the Kalaa of Bani Hammad's site

رمزي فرشيشي[1*]، عائشة حنفي[2]
[1] جامعة الجزائر2، ramzi.ferchichi@univ-alger2.dz
[2] جامعة الجزائر2، aicha.hanafi@univ-alger2.dz

تاريخ الإستلام:2024/04/14 تاريخ القبول:2024/11/28 تاريخ النشر:2024/12/31

الملخص

نهدف من خلال هذا المقال إلى تسليط الضوء على الأبحاث الأثرية السابقة التي قادها أفراد وممثلي حكومة الإِستعمار الفرنسي بداية من فئة الهواة كالمستكشفين والجنرالات وصولا إلى فئة الباحثين والأثريين، ثم البحث عن سبل وآفاق مستقبلية للنهوض بقطاع الأبحاث والحفريات الأثرية على مستوى موقع قلعة بني حماد.

إِستندت الأبحاث الأثرية السابقة بقلعة بني حماد على خلفية إِستعمارية وإِيديولوجية مردها أن آثار قلعة بني حماد لها صلة كبيرة بالوجود الروماني في الجزائر، في محاولة لمحو كل شخصية إسلامية إبداعية محلية كانت أو وافدة. هذا هو الإشكال الذي يجب على الباحثين الوقوف عليه وتمحيص الحقيقة التي تكمن في مواصلة الأبحاث في موقع قلعة بني حماد وإِستنطاق شواهدها الدفينة. ولذلك نتطرق في هذه المداخلة إلى عرض الأبحاث الأثرية السابقة ثم عرض مقترحات حول إمكانية فتح أعمال أثرية على أرض الواقع في موقع قلعة بني حماد.

الكلمات المفتاحية : الحفريات، الأبحاث، الأثرية، قلعة، حماد.

Abstract

This article aims to bring to light previous archaeological research carried out by individuals and representatives of the French colonial government, starting with the category of amateurs, such as explorers and generals, up to the category of researchers and archaeologists. In this way, we expect to look for future paths and perspectives to drive the sector of archaeological research (including excavations) forward at the Qal'a Beni Hammad site.

Previous archaeological research on the Qal'a Beni Hammad site was based on a colonial context and ideology, by highlighting the fact that the site has a close link with the roman presence in Algeria, with the aim of erase any Islamic creative figure, whether local or foreign. This is the problem that researchers have to face, as they have to search for the truth through continuing archaeological excavations in the site of the Qal'a of Beni Hammad. This is why, in this article, we address the presentation of previous archaeological research and then present proposals on the possibility of opening archaeological research on the site of the Qal'a des Beni Hammad.

Keywords : excavations, research, archaeological, Qal'a, Hammad.

* المؤلف المرسل

مقدمة

مع نهاية القرن 19م عرف موقع قلعة بني حماد أولى الأبحاث الأثرية والتي كانت عبارة عن مسح وإستقصاء للموقع أكثر من كونه حفرية أثرية منتظمة. ومع مطلع القرن 20م، إنطلقت أول حفرية أثرية بالموقع بقيادة دوبيليه، تمكن من خلالها الكشف عن العديد من معالم المدينة الحمادية، تبعه الأستاذ قولفين في منتصف القرن 20م بحفريات أخرى أنهى فيها عمل الذي سبقه، لكنها كانت حفريات تحمل في طياتها نوع من العنصرية والتعصب للإستعمار. أما في مرحلة الإستقلال، فقد واصل الأستاذ رشيد بورويبة أبحاث أستاذه قولفين، وقد سار على نفس المنهج المتبع في مرحلة الإستعمار، حيث كان ينقص في أبحاثهم منهج أثري سليم.

بعد هذه الأبحاث التي وإن كانت ناقصة من حيث المنهج الأثري الذي سلكته، هل يمكن إستدراك الوضع فيما يخص الأبحاث الأثرية بقلعة بني حماد وتصحيح النقائص السابقة من خلال الإكتشافات المستقبلية؟

للإجابة على هذه الإشكالية، رأينا أنه من الضروري عرض أبرز الأبحاث الأثرية السابقة التي عرفها الموقع بهدف الوقوف على الجهود المبذولة في الكشف عن جزء من مكنونه الأثري، وتحليل منهجية تلك الأبحاث ومدى المصداقية العلمية التي تتمتع بها، وهل يمكن الإعتماد عليها كقاعدة علمية للأبحاث الأثرية المستقبلية، من أجل الإستمرار في الكشف عن الجزء المتبقي من المكنون الأثري بالموقع.

عرض

1. تاريخ الأبحاث الأثرية

إستقدمت السلطات الفرنسية عند غزوها للجزائر مجموعة من المستكشفين والرسامين والمهندسين المعماريين الذين وثّقوا أعمالهم الأدبية والفنية، المتعلقة بمختلف جوانب الحياة عند المجتمع الجزائري سواء من الناحية السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية، وألّفوا عليها كتب ومصنفات وذلك من أجل دراسة هذا المجتمع الغريب عن الثقافة الغربية، ومحاولة فهم ثقافته ومعتقداته من أجل السيطرة عليه وتثبيت وترسيخ فكرة الإستعمار.

كان الإهتمام الأول بقلعة بني حماد من طرف الجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة التي تأسست سنة 1852م، والتي كانت تهتم بنشر الأبحاث الأثرية، التي كان يقودها بعض من أعضائها الذين كانوا في السابق قادة عسكريين أو أطباء أو مدرسين أو مهندسين وحتى رجال الدين.[1] أول من قام بحفريات أثرية قلعة بني حماد الأستاذ بول بلانشي Paul Blanchet الذي يعتبر من مؤسسي الجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة، حيث دامت هذه الحفريات 10 أيام فقط من سنة

[1] يمينة شيبان، الجمعيات العلمية الجهوية ودورها في تأسيس المتاحف الأثرية بالجزائر خلال القرن 19م، مجلة الرواق للدراست الإجتماعية والإنسانية، المجلد 7، العدد1، جامعة تلمسان، 2021، ص344.

1897، تمكن من خلالها تحديد معالم قلعة بني حماد، ثم نشر تقرير حولها في المجلة التي تصدرها الجمعية وذلك سنة 1998.[2]

بعد بلانشي، قاد الجنرال دوبيليه حفريات أثرية دامت ثلاثة أشهر ونصف من سنة 1908م على مستوى موقع قلعة بني حماد، ثم نشر نتائج أعماله في كتاب يحمل عنوان "قلعة بني حماد عاصمة بربرية لأفريقيا الشمالية"، والصادر سنة 1909م. [3]

كان قولفان أستاذًا في قسم الآداب بجامعة الجزائر عندما أخذ على عاتقه مواصلة الحفريات الأثرية بقلعة بني حماد والتي توقفت بعد أعمال الجنرال دوبيليه. دامت هذه الأبحاث مدة 11 شهر، بداية من شهر أكتوبر 1951، وفي كل من شهر جوان وأكتوبر من سنة 1952، 1953، 1954، 1955، 1956. وفي السنة الأخيرة، توقفت الأبحاث بسبب حرب التحرير الجزائرية، وذلك إلى غاية سنة 1960، لتُستأنف بصفة منتظمة إلى غاية شهر ماي 1962. قام هذا الأستاذ بنشر نتائج أبحاثه وأعماله في كتاب قيّم ومميّز تحت عنوان "**أبحاث أثرية بقلعة بني حماد**"، وذلك سنة 1965.[4]

بعد اِستقلال الجزائر سنة 1962، أخذ الأستاذ رشيد بورويبة الذي كان أستاذا في علم الآثار بجامعة الجزائر، على عاتقه مواصلة الحفريات الأثرية بقلعة بني حماد، والتي كانت قد توقفت مع أعمال الأستاذ قولفين. كانت حفريات الأستاذ رشيد بورويبة من أول الحفريات الأثرية في حقبة الاِستقلال، حيث دامت سبع سنوات من 1964 إلى 1971م،[5] ثم نشر نتائج أبحاثه في كتابين قيّمين أحدهما باللغة الفرنسية والثاني هو ترجمة إلى اللغة العربية للكتاب الأول. وكان عنوانه بالعربية "**الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها**" و الذي نشره سنة 1977م.[6]

1.1. أعمال بول بلانشي

تلخص التقرير الذي نشره هذا الباحث في تقديم لمحة تاريخية حول تأسيس دولة بني حماد وقلعتهم التي كانت أول عاصمة لهذه الدولة الفتية، ومختلف الأحداث التاريخية السياسية والحضارية التي شهدتها المدينة بداية من تأسيسها سنة 1007م إلى غاية خربها في حرب بني غانية سنة 1185م كما يقول الباحث. ثم عرّج لذكر اِكتشافاته الأثرية من خلال تحليل بعض المعطيات التاريخية المتعلقة ببناء المدينة وتحصينها بسور دفاعي، كما تطرق إلى القصور المذكورة في

[2] Blanchet P ; Rapport sur les travaux exécuté à la Kalaa des Bani Hammad, "Receuil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine", Ed Jourdan, Vol 32, Alger, 1898, p97.
[3] De Beylié L ; La kalaa des Bani Hammad, capitale Berbère de l'Afrique du Nord au 11éme siècle, Ernest leroux, Paris, 1909, p2-27.
[4] Golvin L ; Recherches Archéologiques à la Qal'a des Banu Hammad, édition G.P Maisonneuve et larose, Paris, 1965, p9-11.

[5] Khelifa A; "Bilan de la recherche archéologique musulmane en Algérie (1962-2004)", L'Algérie 50 ans après. Etat des savoirs en sciences sociales et humaines 1954-2004, CRASC, 2008, p179-181.

[6] رشيد بورويبة، الدولة الحمادية : تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص1.

المصادر التاريخية كقصر الملك وقصر المنار وقصر السلام وقصر العروسين، حيث إستدل كثيرا بالمؤرخ إبن خلدون والشيخ التيجاني وإبن حماد لإعطاء فكرة عن مختلف المباني التي كانت موجودة بقلعة بني حماد.[7]

2.1. أعمال الجنرال دوبيليه

قسّم الباحث كتابه إلى جزئين، حيث خصّص الجزء الأول منه لقلعة بني حماد، أما الجزء الثاني فكان لمدينة بجاية. إستهل الباحث كتابه بعرض عام لتاريخ الدولة الحمادية منذ رحيل الفاطميين إلى مصر وبروز بولوغين بن زيري كأمير على إفريقية، وهو والد مؤسس قلعة بني حماد، إلى غاية سقوط الدولة على يد جيوش الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي. ثم ينتقل إلى سرد الأحداث السياسية الحضارية التي شهدتها قلعة بني حماد بعرض وجيز، حيث تحدث عن الثائر الزناتي "أبو يزيد" الذي كاد أن ينهي الخلافة الفاطمية لولا تدخل صنهاجة التي ساهمت في القضاء على تلك الثورة. وقد تحصن هذا الثائر في جبل القلعة والذي كان يحمل إسم جبل كيانة، ويقول أنه كان موقع مهم حتى قبل أن يكون عاصمة للدولة الحمادية. كان سرده عبارة عن محطات تاريخية وحضارية لينتهي إلى خراب القلعة في حرب بني غانية التي دمرت العديد من مدن المغرب الأوسط.[8]

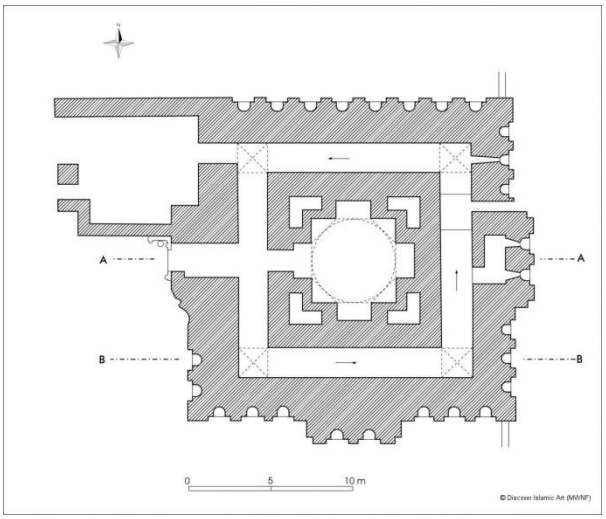
بعد الإنتهاء من عرض الجانب التاريخي، بدأ الباحث في وصف الآثار التي تمكن من إكتشافها خلال الحفريات الأثرية، حيث قدم وصفا حول التحصينات والمتمثلة في السور الدفاعي الذي كان يحيط بالمدينة وبعض النقاط الدفاعية كالبرج الصغير الواقع أعلى قمة جبل تاقربوست والحصن الواقع في قمة هضبة القُرَين، وبرج المنار الواقع على هضبة المنار، بالإضافة إلى الأبواب الثلاثة المعروفة بهم قلعة بني حماد، وهي باب الجنان وباب جراوة وباب الأقواس.[9]

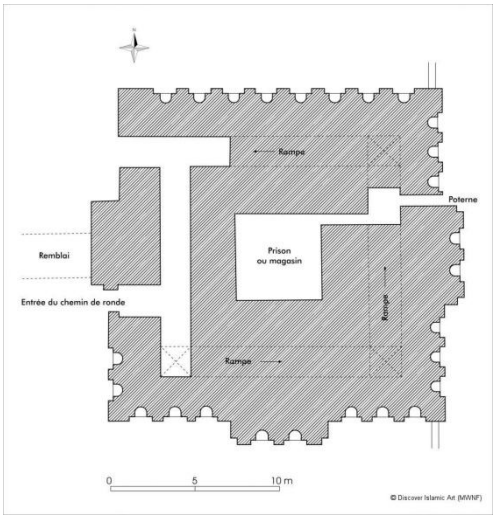
بعدها يصف الباحث الموارد المائية للمدينة منها الأنهار المجاورة التي كانت تغذي المدينة، عبر قنوات فخارية كانت تتفرغ في أحواض وخزانات مائية منها الخزان المعروف بنافورة السلطان، والخزانات والأحواض الموجودة على مستوى قصر المنار وقصر البحر، وهذا بصفة عامة النظام الذي كان يغذي المدينة بالماء.

ثم تطرق إلى وصف برج المنار، لأن الأعمال التي قام بها دوبيليه إقتصرت على البرج دون إجراء حفريات على مستوى القصر. كان وصف البرج من حيث الشكل الخارجي والداخلي دقيقا، فقد قام بوصف بعض العناصر المعمارية، وتحليل لمختلف الوحدات المعمارية الموجودة في البرج، كالمدخل وممر الحرس وقاعة الطابق الأرضي والقاعة المركزية الواقعة في الطابق الأول، (الشكل 1) بالإضافة إلى بعض الوحدات الزخرفية وزخارفها كالأفاريز والأطر والأعتاب

[7] Blanchet P ; Op cit, p 98-115.
[8] De Beylié L ; Op cit, p2-27.
[9] Ibid, pp.29, 33, 34.

والقبيبات الحجرية والجصية... والحنايا الجدارية التي تعلوها صدفات جصية والتي أرجعها إلى التأثيرات الخارجية الفارسية.[10]



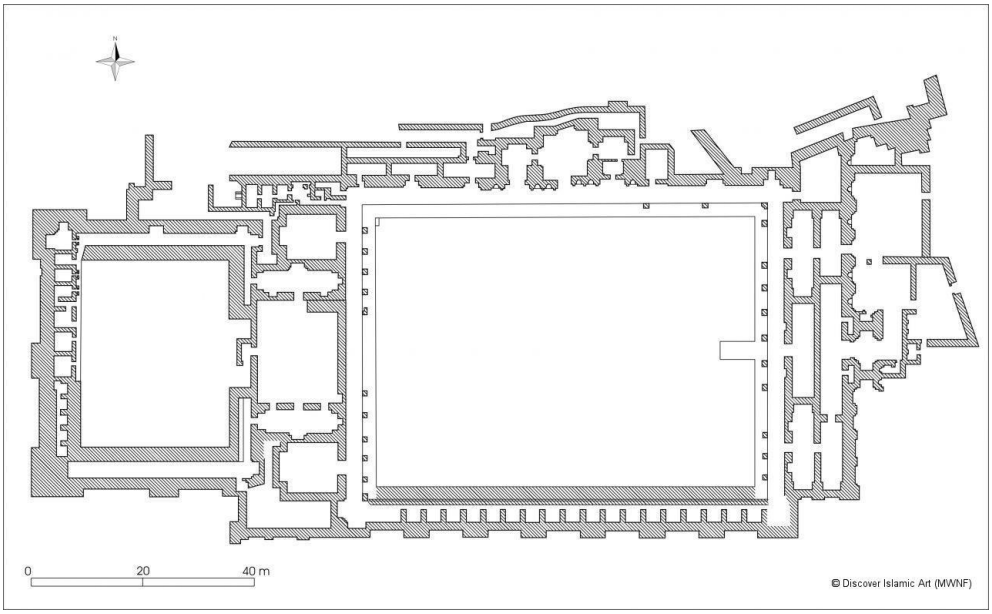


الطابق العلوي **الطابق الأرضي**

الشكل 1 : مخطط برج المنار بقلعة بني حماد (موقع اِكتشف الفن الإسلامي) عن دويبليه

ثم ينتقل الباحث إلى وصف مفصل للمكتشفات الأثرية التي تم العثور عليها على مستوى قصر الأمراء، والمعروف أيضا بدار البحر، حيث أعطى وصفا معماريا دقيقا لهذا القصر مع مختلف وحداته وعناصره المعمارية التي تمكن من العثور عليها بين طبقات الأتربة، منها المدخل الرئيسي والحوض الكبير، قاعة العرش وقاعة الإستقبالات، والحمام والفناء الثاني الواقع في غرب قصر البحر.[11] (الشكل 2)

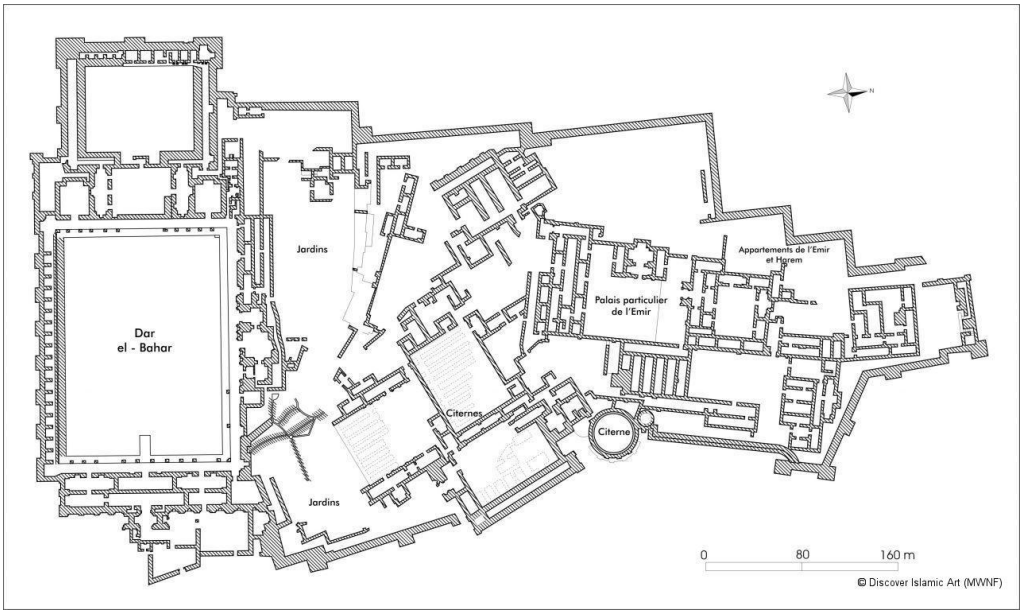
[10] Ibid, pp.38-53.
[11] De Beylié L ; Op. cit, p.53.



الشكل 2 : مخطط مبنى دار البحر بقصر الأمراء بقلعة بني حماد (موقع اِكتشف الفن الإسلامي) عن دوبيليه

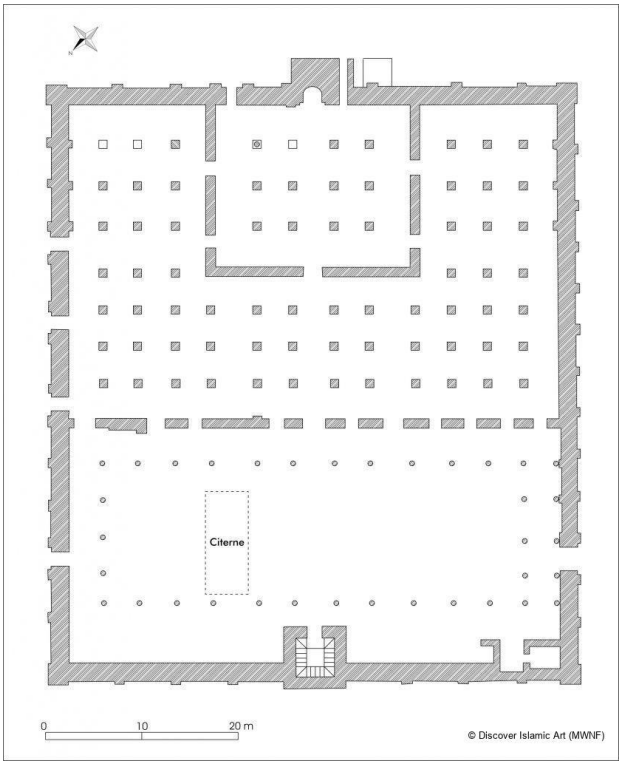
أما الوحدات والفضاءات الواقعة في شمال هذا القصر، كانت متمثلة في وحدات سكنية تضم جناح الحريم والجناح الخاص بالأمير وسكنات أخرى موزّعة على كتل صخرية. (الشكل 3) وقد اِستخرج الباحث من ركام هذا القصر عديد من القطع المعمارية كالبلاطات الخزفية خاصة تلك المرسومة بزخارف البريق المعدني، والقطع الجصية المحفورة والمطلية والمقرنصات التي كانت تزين سقوف قاعة القصر، والقطع الرخامية والحجرية المنحوتة التي كانت تزين جدرانه. وقد كان وصفه مرفقا بالصور، وكذا المخططات المعمارية التي قام بإنجازها المدعو "جورج مارسيه"، دون أن يهمل الجانب التحليلي الذي يتمثل في إرجاع كل تلك الزخارف إلى تأثيرات خارجية سواء عباسية إسلامية أو فارسية ساسانية أو بعض التقاليد المحلية. [12]

[12] De Beylié L ; Op. cit, pp.53-77.



الشكل 3 : مخطط قصر الأمراء بقلعة بني حماد (موقع اِكتشف الفن الإسلامي) عن دوبيليه

بعد قصر الأمراء، يتطرق الباحث إلى وصف مسجد قلعة بني حماد، حيث يسبق في وصف عام للمسجد، ثم إلى الصحن وما كان يحيط به من أروقة محمولة على أعمدة، قال أنها فُقِدت جميعها ولم يلق لها أثر، والصهريج الذي كان يحتل جزء من مساحة هذا الصحن. ثم تطرق إلى وصف قاعة الصلاة ، وأشار إلى المقصورة التي تتقدم المحراب دون أي زيادة. لم يتطرق إلى شكل المحراب والمكان الذي كان يأوي المنبر، غير أنه ذكر أن العمود الوحيد الذي تمّ العثور عليه في مكانه في قاعة الصلاة، هو على مستوى المقصورة، كما رجح أن سقف المسجد كان من الخشب لعدم وجود ردم معماري على مستوى قاعة الصلاة. أما المئذنة التي أعطى لها وصفا خارجيا عام، أشار إلى أن جزئها العلوي اِندثر ، ثم أعطى وصفا داخليا تكلم فيه عن حالة المئذنة، وعن السلالم وطريقة تسقيفها،وعن المزاغل التي فُتِحت في الجدران. (الشكل 4)



الشكل 4 : مخطط المسجد الجامع بقلعة بني حماد (موقع اِكتشف الفن الإسلامي) عن دوبيليه

ليعطي أهمية أكبر للواجهة الجنوبية التي كانت تحتوي على مدخل المئذنة ومختلف الزخارف التي تناولها بشيء من الإيجاز، حيث بدأ بزخارف المدخل ثم الزخارف الموجودة في الطوابق العلوية، وقام برسم كل هذه الزخارف في كتابه.[13]

كانت الفنون التطبيقية الحمادية في آخر الجزء الذي خَصَّصه الباحث لقلعة بني حماد، حيث بدأ بدراسة الفخاريات الحمادية التي كانت منتشرة والتي تم اِستخراجها خلال الحفريات. وقد ركّز الباحث على الخزف الراقي الذي عثر عليه على مستوى قصر الأمراء وقصر المنار، والذي اِهتم بدراسته لأنه يحتوي على الكثير من المعطيات. ومن القطع التي أشار إليها الباحث تلك التي تحمل زخارف نباتية وهندسية وحيوانية، وتلك التي نفدت عليها زخارف بالختم والمرسومة والمصبوغة بمختلف الطلاءات. أما أهم القطع التي اِنصب جل اِهتمامه عليها، هي تلك التي كانت تحتوي على زخارف بالبريق المعدني، والتي قال عنها أنها من تأثير مشرقي وفارسي، رغم أنها حسب قوله مصنوعة محليا لأنه وجد الكثير منها في كل من دار البحر وقصر المنار. وقد أشار إلى شيء مهم وهو أن زخارف البريق المعدني الموجودة في قلعة بني حماد والتي تعود للقرن الحادي عشر ميلادي، قد سبقت تلك التي وجدت في إسبانيا والعائدة للقرن الثالث عشر والرابع عشر ميلادي.[14]

[13] De Beylié L ; Op. cit, pp.77-84.
[14] De Beylié L ; Op. cit, pp.85,86,87.

كما أشار إلى وجود العديد من المصابيح الزيتية الفخارية منها التي بدون طلاء ومنها المطلية باللونين الأزرق والأخضر، والتي كانت مقابضها مستقيمة أو منحنية. بالإضافة إلى الإشارة إلى بعض بقايا الجص المزجج وبعض القطع النقدية التي عثر الباحث عليها، كالقطعة الحمادية النادرة التي أخذها إلى باريس، وصنجة زجاجية لضرب السكة تعود للعصر الفاطمي، وبعض القطع النقدية الموحدية والرومانية. وبعض القطع البرونزية المحفوظة في المتحف الآثار القديمة العاصمة وبمتحف قسنطينة. كما أشار إلى شواهد القبور التي كانت على مستوى الموقع والتي لم يجد في أغلبها، على حسب قوله، إلا على كتابات دينية بدون تاريخ.[15]

3.1. أعمال الأستاذ قولفين

قسّم الباحث كتابه إلى قسمين أو كما يسميه كتابين، وكل قسم يحتوي على فصول، حيث اِستهل قسمه الأول بفصل يتطرق فيه إلى دراسة جغرافية وطبوغرافية لموقع قلعة بني حماد، الموقع الجغرافي والفلكي ومسافة قلعة بني حماد بالنسبة للمدن الكبرى والطرق والمسالك التي تربط القلعة بمحيطها الخارجي. كما تطرق في الجزء الطبوغرافي إلى التضاريس التي يتميّز بها موقع القلعة، وموقع بقايا الآثار التي يمكن مشاهدتها بدون اللجوء إلى عملية الحفر، وتلك الجبال التي تحيط بها، حيث ذكر أسماءها بقممها واِرتفاعاتها المختلفة، والأودية والأنهار التي تحدها ومنابعها الدائمة والمتقطعة، والمسالك الملتوية والوعرة التي تؤدي منها وإليها.[16]

تطرق في الفصل الثاني من الكتاب الأول إلى الدراسة التاريخية لقلعة بني حماد، بداية من مرحلة تأسيس المدينة والأحداث السياسية التي عرفها المغرب الأوسط، وقد وصف شخصية حماد والذي قال عنه أنه كان قائدا متهورا وشخصا شديدا وقاسيا مع جميع الناس، قاد الحروب لكنه خسر أمام أقاربه الزيريين... تمادى في وصفه ووصف أعماله وصوّره أنه كان شخصا سرق الحكم من بني عمومته. ثم تطرق في نفس الفصل إلى التطور الحضاري للمدينة ومختلف الأحداث التي شهدتها، ونراه ينتقد أقوال المؤرخين والجغرافيين، ثم ينتقل إلى سرد أحداث تأسيس القلعة وتعميرها بالسكان، وإلى حصار الزيريين، ثم إلى موجة المهاجرين التي عرفتها القلعة بعد سقوط القيروان في أيدي القبائل العربية، ثم إلى الأحداث التي عجّلت بتغيير العاصمة الحمادية إلى بجاية، وبذلك إلى بداية اِنحطاط قلعة بني حماد والأحداث المأساوية التي تمثلت في غزو القبائل العربية لأحوازها ومحيطها، فتركها الحماديون تواجه مصيرها إلى أن سقطت في يد الجيوش الموحدية. وفي نفس الفصل كذلك تطرق إلى مختلف الجوانب الحضارية التي عرفتها القلعة حيث تحدث عن الحياة الاِقتصادية والحياة الثقافية والحياة الدينية.[17]

[15] Ibid, pp.87-89.
[16] Golvin L ; Op cit, pp.17,19-22.
[17] Golvin L; Op cit, pp.25-44.

كان الفصل الثالث يحمل عنوان "آثار قلعة بني حماد" حيث تطرق بالأول إلى الموقع العام والمعالم التي اِكتشفها الجنرال دوبيليه، فقد بدأ بوصف المخطط العام للمسجد وأعطى بعض الفرضيات حول بنائه، ثم انتقل إلى وصف الصحن والمئذنة وصفا خارجيا وداخليا. ثم قام بوصف قصر الأمراء ومختلف الوحدات المعمارية بطريقة مفصّلة ومطوّلة مستعينا ببعض الفرضيات في شرح مختلف الوحدات المعمارية. كما قام بوصف برج المنار وصفا خارجيا وداخليا مفصلا مستعينا بمخططات التي نشرها الجنرال دوبيليه، ويتلو وصفه بقصر السلام الذي قام بالحفريات فيها في الجزء العلوي، ثم قصر المنار الذي كان أول من قام بأعمال الحفر على مستوى هذا الأخير، حيث وصف المباني المكتشفة بطريقة مفصلة. بعدها اِنتقل الباحث إلى ذكر الخصائص العامة لعمارة قلعة بني حماد، حيث تطرق إلى المخطط العام للقصور وبعض ملامحها المعمارية، ليعرّج إلى مختلف الوحدات المعمارية بالشرح والتحليل، حيث بدأ بالواجهات الخارجية لمعالم القلعة، ثم إلى الوحدات المعمارية لقصورها، بداية من المداخل البارزة والمنكسرة، ثم القاعات ذات المشاكي، والقاعات ذات التجاويف المعمارية، ويقصد بها قاعات العرش والقاعات المجوّفة، ثم التسقيف سواء بالسقوف الخشبية والقرميد أو المبنية بالحجر أو الآجر مثل التسقيف بالقبو المهدي والتسقيف القبو المتقاطع والتسقيف بالقباب، لينتقل إلى الزخرفة المعمارية على مستوى العناصر المعمارية، ومعها المواد المستعملة، مثل أشكال العقود المختلفة، الصدفات الجصية والقبيبات، والشادروان، والمقرنصات، والأعمدة وتيجانها، والكوابل ج. كابولي (الحوامل)، والأعضاد ج. عضُد، والأعتاب، كما تطرق إلى العناصر الزخرفية المتمثلة في الزخارف الهندسية المتشابكة والأشرطة، النجوم الثمانية والمربعات والمثلثات والدوائر والوُرَيدات، والزخارف النباتية كالأوراق (المراوح النخيلية) والزهور والبراعم والفروع، والزخارف الكتابية المنفذة على الأعتاب والأعضاد على مستوى المداخل، والمنفذة على الرخام والحجر والجص، والزخارف الآدمية والحيوانية.[18]

أما الفصل الأخير فقد خصصه للكتابات الجنائزية، حيث تطرق أول الأمر إلى أشكال القبور التي وجدت بقلعة بني حماد ومقاساتها والكتابات التي تحتويها. ثم تطرق إلى تحليل هذه الكتابات المنفذة بالخط الكوفي، وتحليل حروف هذا الخط.[19]

أما القسم الثاني من هذا الكتاب فقد خصصه لمختلف الآثار المنقولة التي وجدت بالقلعة، بداية من الفصل الأول، الذي اِستهله بالخزف الحمادي، حيث تحدث عن الورشات الصناعية وطبيعة الطين المحلية، ثم إلى مراحل صناعة الفخار من تحضير الطين وعملية تشكيل الأواني وعملية التجفيف والحرق ثم مرحلة الزخرفة، وتحضير الطلاءات بمختلف أكاسيدها المعدنية. كما تطرق إلى أنماط الفخار منها المعماري كالقرميد والآجر والقنوات فخارية، وبعض العناصر الزخرفية، المصابيح، الجرار والقلل والقدور والأقداح والصحون، ثم عرّج إلى الزخرفة ومختلف أنواعها، كالزخارف المرسومة تحت الطلاء، الزخرفة بالحز، والزخرفة بالختم، والزخرفة بالبريق المعدني، الزخرفة بالحبال الجافة،

[18] Ibid, pp.47-156.
[19] Golvin L; Op cit, pp.157-180.

والزخرفة المرسومة بدون طلاء، أما عن المواضيع الزخرفية التي نُفِذت على الخزف الحمادي، فكانت من العناصر الهندسية والنباتية والكتابية، والكائنات الحيّة الحيوانية كالأحصنة والأسود والغزلان والطيور، والآدمية. كما تطرق في الفصل الثاني إلى المكتشفات الزجاجية وتقنية صناعتها، وعدّد أنواعها مثل زجاج النوافذ والآواني الزجاجية والكؤوس وأجزاء من قنينات وقارورات العطور... ثم في الفصل الثالث إلى المسكوكات المختلفة خاصة الفضية منها والتي وصفها من حيث المقاسات والشكل والمضمون. ثم الفصل الرابع الذي خصصه للمجوهرات المختلفة، والفصل الخامس للمعادن المكتشفة من الحديد والنحاس والبرونز، والزخارف المنفذة عليها، ثم الفصل السادس والأخير إلى باقي القطع التي الأخرى التي تمثلت في منحوتات من الجص وحوض من الرخام الرمادي والمحفوظ في متحف الآثار القديمة.[20]

كما ألّف الباحث مقالات حول مختلف المعالم الأثرية بالقلعة منها مقال يتحدث عن القاعات وملاحقها ومقال يتحدث عن المداخل البارزة بشمال إفريقيا والتي يعطي فرضية مفادها أنها مستلهمة من المداخل التذكارية (أقواس النصر) الموجودة في المدن الرومانية بشمال إفريقيا.

4.1. أعمال الأستاذ بورويبة

قسّم الأستاذ رشيد بورويبة كتابه إلى قسمين، حيث تناول القسم الأول تاريخ الدولة الحمادية منذ التأسيس سنة 408هـ/1018م، وهو بدوره قسّمه إلى أربع فصول.[21]

تحدث في الفصل الأول عن مؤسس الدولة وأميرها حماد بن بلقين "بالقاف" كما تعود الأستاذ كتابتها، وعن شخصيته، وعن الظروف التي سمحت له بأن يؤسس دولته، ثم الفصل الثاني الذي تناول أبرز الأحداث التي وقعت خلال عهد خلفاء حماد، الأمير القائد ومحسن وبلقين بن محمد. كما تطرق في الفصل الثالث إلى عهد الأميرين الناصر بن علناس وإبنه المنصور، والذي وصلت فيه الدولة الحمادية إلى أوجه عهدها. ليختم الفصل الرابع والأخير بفترة الإنحطاط التي شهدتها الدولة في عهد ملوكها باديس بن المنصور وإبنه العزيز وإبنه يحي، والذي إنتهى في عهده حكم دولة بني حماد بدخول جيوش الموحدين مدينة بجاية.

أما القسم الثاني من الكتاب فقد خصصه إلى الجانب الحضاري للدولة الحمادية وقسّمه إلى خمسة فصول.

تناول الفصل الأول الحياة السياسية ونظم الدولة، حيث تطرق إلى تطور حدود الدولة الحمادية وعلاقاتها مع الزيريين وزناتة وبني هلال والمرابطين والفاطميين والعباسيين والصقليين والإيطاليين. ثم إلى النظام الإداري والجيش والأسطول البحري. أما الفصل الثاني فكان للحياة الإقتصادية حيث تطرق إلى الفلاحة والغابات وتربية الحيوانات وصيد الأسماك

[20] Golvin L; Op cit, p185-282.

[21] رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص3، 4.

والصناعة والتجارة. كما اِهتم في الفصل الثالث بالحياة الإجتماعية والدينية، فتحدث عن مدن وسكان المغرب الأوسط في العهد الحمادي، وعن مأكولاتهم وملابسهم وسكناهم وديارهم ومذاهبهم. بينما اِحتوى الفصل الرابع على الحياة الثقافية والذي شمل أبرز الشعراء والنقاد والكتاب والفلاسفة ورجال الدين والنحاة واللغويين وغيرهم من العلماء الذين عاصروا العهد الحمادي. ليحمل الفصل الخامس والأخير عنوان الفنون الحمادية، حيث نشر فيه نتائج أعماله ودعّمها بنتائج الأعمال السابقة لكل من دوبيليه وقولفين. وقد تطرق في هذا الفصل إلى مختلف المباني الحمادية بالقلعة بداية بالمباني العسكرية والمساجد والقصور والمباني الدينية الأخرى، ثم عرّج للحديث حول الخزف الحمادي وزخارفه المختلفة، وعن القبور والأعمدة والتيجان والأحواض...إلى أن وصل للحديث عن النقش على بعض المواد مثل الرخام والحجر والجص والبرونز وعن القطع الزجاجية. ثم أنهى هذا الفصل بذكر النقود والحلي التي عثر عليها الأثريون. وقد أرفق الأستاذ رشيد بورويبة أبحاثه بمجموعة من التعاليق والخرائط والصور والرسوم التوضيحية حتى تسهل الفهم والعمل للباحثين والطلبة في قابل الأيام.

2. آفاق ومستقبل الأبحاث الأثرية

بعد الأبحاث الأثرية التي أجريت على مستوى مسجد قلعة بني حماد من طرف بعثة مشتركة جزائرية بولندية سنة 1987-1988م، لم يشهد الموقع حفريات أثرية جِدِّية وذلك رغم تصنيفه ضمن مواقع التراث العالمي سنة 1980م، ورغم ما يحمل في طبقاته الأثرية من معطيات علمية وأثرية قد تساهم في تصحيح أو إضافة جديدة للمعطيات التاريخية والأثرية السائدة.

اِنصب اِهتمام المنَقِّبون في الحفريات الأثرية السابقة على المعالم البارزة للمدينة الحمادية، حيث حاولوا إبراز الحدود الفاصلة بين داخل وخارج مساحة المدينة من خلال تتبع آثار الأسوار التي كانت تحيط بها والأبواب التي تربط شوارعها من الداخل والتي تنفتح على محيطها الخارجي. كما حاولوا التنقيب على مستوى الآثار الظاهرة للعيان منذ مئات العقود، مثل التنقيب على مستوى مئذنة المسجد الجامع التي قاومت عوامل الزمن وأبت الإنهيار، وعلى مستوى برج المنار الذي يظهر من بعيد فوق هضبة حي جراوة. كما تصفحوا المصادر التاريخية التي أشارت إلى مجموعة القصور التي أنشأها أمراء بني حماد، وحاولوا الوقوف على أماكن تواجدها، ثم تسابقوا إلى التنقيب عن آثارها بداية من قصر البحر أثناء حفريات الجنرال دوبيليه، ثم جزء من قصر المنار أثناء حفريات التي قادها قولفين، والجزء الآخر أثناء حفريات الأستاذ بورويبة، وقصر السلام أثناء حفريات قولفين. كما تمكنوا من تحديد مكان وجود آثار قصر الكوكب بينما لم يتمكنوا من تحديد القصور المتبقية المذكورة في المصادر كقصر العروسين وقصر بلارة.

اِعتمدت الأبحاث السابقة على الحفر العشوائي من خلال تتبع الآثار واِستخراجها ونشر نتائج تلك الأبحاث، لكنها أهملت جوانب كثيرة أصبحت من أساسيات علم الآثار. إن أول من قام بدراسة طبوغرافية للموقع هو قولفين، وهو الوحيد الذي فكر في هذا الأمر، بينما لم يكن من بين هؤلاء الباحثين من قام بدراسة طبقية للموقع، وهذا ما جعل دراستهم ناقصة

لم تمكّنهم من فهم التسلسل الطبقي ومنه التاريخي للمدينة. كما اِقتصر اِهتمامهم بالتنقيب عن المعالم البارزة وأهملوا البحث في المساحات الأخرى التي تخفي آثار الأحياء والمساكن العامة والأسواق والحمامات...، والتي تعطي معطيات أدق وأعمق بكثير من حيث الحياة الاِجتماعية والاِقتصادية والثقافية والحضارية لمجتمع قلعة بني حماد.

بما أن موقع قلعة بني حماد مازال يحتفظ بالكثير من الأسرار العلمية والأثرية غير المكتشفة، التي تنتظر من الباحثيين والأثريين بأن يميطوا عنها اللثام، لإتمام النقائص والفراغات التاريخية التي تركها الباحثون السابقون. لا بد من مواصلة الحفريات الأثرية بالموقع خاصة بعد أن خطى مجال علم الآثار قفزة علمية كبيرة في القرن 21م، وتوفّر وسائل التكنولوجيا الحديثة مع تكاتف الباحثين وتكثيف الجهود والدفع بالبحث الأثري بقلعة بني حماد نحو آفاق مستقبلية واعدة.

خاتمة

ساهمت الأبحاث الأثرية السابقة في إبراز الدور الحضاري لقلعة بني حماد من خلال المكتشفات التي تنوعت من معالم كالمساجد والقصور والأبراج والأسوار، وتحف تطبيقية من فخار وخزف راقي ومعادن وحلي وتحف معمارية منفذة على مواد زخرفية كالحجر والجص والرخام. لكنها أهملت المنهج الأثري الصحيح في دراسة المواقع والمعالم واللقي الأثرية المكتشفة، فشابها نوع من النقص على مستوى المعطيات العلمية، فقدت فيه تلك المكتشفات توزيعها فضائها الصحيح وفقدت موقعها بالنسبة لعلم الطبقية الأثرية. لذلك توجب على الأثريين في المستقبل اِستدراك الوضع وتصحيح الأخطاء التي عرفها البحث الأثري بموقع قلعة بني حماد، من خلال تنظيم حفريات وأبحاث أثرية يكون منطلقها ومنطقها المنهج الأثري مع الاِستعانة بوسائل التكنولوجيات الحديثة لتكون دراسة أكثر دقة من أي وقت مضى.

قائمة المراجع

– بورويبة رشيد، الدولة الحمادية : تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977.
– شيبان يمينة، "الجمعيات العلمية الجهوية ودورها في تأسيس المتاحف الأثرية بالجزائر خلال القرن 19م"، مجلة الرواق للدراست الاِجتماعية والاِنسانية، المجلد 7، العدد1، جامعة تلمسان، 2021.
- Blanchet P ; "Rapport sur les travaux exécuté à la Kalaa des Bani Hammad", Receuil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine, Ed Jourdan, Vol 32, Alger, 1898.
- De Beylié L ; La kalaa des Bani Hammad, capitale Berbère de l'Afrique du Nord au 11éme siècle, Ernest leroux, Paris, 1909.
- Golvin L ; Recherches Archéologiques à la Qal'a des Banu Hammad, édition G.P Maisonneuve et larose, Paris, 1965.
- Khelifa A; "Bilan de la recherche archéologique musulmane en Algérie (1962-2004)", L'Algérie 50 ans après. Etat des savoirs en sciences sociales et humaines 1954-2004, CRASC, 2008.